الفراغ الفكري وخطورته على الشباب في ظل ثورة الاتصالات الحديثة

حسن عبد الله حمد النيل عبد الله

جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا- معهد العلوم والبحوث الإسلامية

المستخلص:

يواجه الشباب اليوم فراغاً فكرياً كبيراً تسببت فيه وأوجدته عوامل عدة تفترق أو تجتمع في الحالـة الواحـدة، وتتنوع أسبابه ما بين عوامل خاصة وعامة.وقد كشفت هذه الدراسة بأن الظروف التي يعيشها كثير من الشباب مثل عدم وجود مشاغل لأسباب الفشل في الدراسة أوعدم إتمامها بسبب الظروف الاقتصادية أو عدم وجـود فرص عمل أمام الشباب؛ مثلت عوامل مهمة في إحداث فراغ كبير في حياة الشباب.

تتناول هذه الدراسة "الفراغ الفكري وخطورته على الشباب في ظل ثورة الاتصالات الحديثة" أولاً: تعريـف الفراغ الفكري ثانياً أسبابه، ثالثاً: مظاهره، رابعاً: الحلول والمعالجات.

ABSTRACT:

Nowadays young people face a great intellectual vacuum caused by several factors vary between private and public ones. Therefore, the study reveals that the real life situations experienced by those young people such as academic failure or incompletion of education due to the severe economic hardship and unemployment have mainly caused the problem. These factors should be addressed before this problem gets out of control

This study deals with the intellectual vacuum, and its threats towards the youths in the present day world of communication revolution. The study tackles the meaning of intellectual vacuum, its causes, features and then the ways to answer the problem.

الكلمات مفتاحية: الفوضى الفكرية – وسائط – تقنية- الانفتاحية العالمية.

المقدمة:

تكتسب هذه الورقة أهميتها العلميَّة، من كونها تمس أمراً بالغ الخطورة، لا بالنسبة لمسلمات الفكر الإسلامي فحسب بل لعقيدته أيضاً.

لقد أودع الله في الإنسان طاقة، ترتبط بروحه وقلبه وعقله وسائر أعضائه وأجهزته، تولّد هذه الطاقة إحساساً شديداً بضرورة التجاوب معها، بوسيلة من الوسائل المناسبة، التي من شأنّها أن تغير من ذلك الإحساس الشديد أو تبقي عليه على نحو يُمكّن الإنسان من القيام بنشاطاته بشكل إيجابي ومؤثر.

بطبيعة الحال فإنّ عدم التجاوب مع الطاقة الكامنة في الإنسان يؤثرسلباً في روحه وعقله وجسمه، وقد يصل هذا التأثير إلى إزهاق الروح أو إحداث علة في العقل أو القلب (فراغ فكري). ينعكس في عدم التجاوب مع ما أُودع في الإنسان من طاقة من أجل نشاطه وسلوكه في الحياة.

ولا يخفى ما للوسيلة من أهميَّة في تلبية دعوة الطاقة الإنسانيَّة للإشباع، فللوسيلة كماً وكيفاً أثر بالغ في إعادة التوازن بين الإنسان ونشاطه. ذلك التوازن الذي يُمكِّنه من تحقيق أهدافه وطموحاته. إنَّ أيَّ مجتمع بحسبانه كياناً قائماً بذاته، لابد له من أُسس يُبنى عليها، وتكاد تكون هذه الأُسس مشتركة بين المجتمعات كلها، بيد أن المجتمع الإسلامي تَّميز عن غيره في هذا المجال من جهتين:

الجهة الأولى، فهي أنّه جعل العقيدة بكل قوّتها والشريعة بكل أحكامها الأساس الأكبر الذي تُبنى عليه الأُسس الأخرى، إذ لا قيمة لأي أساس لا تكون العقيدة والشريعة متمثلة فيه قائمة عليه، وهذا ما ظهر جلياً في التربية النبوية للمسلمين أفراداً وجماعاتٍ بخاصة في العهد المكي وقد مهَّد الطريق للأُسس الأخرى لتصبح مكونات معتبرة لهذه الأسس، وأشرنا كيف أن الإسلام صبغها بصبغة عقدية وصاغها صياغة إسلامية، ومن هنا كان التميز وكانت الآثار الإيجابية.

أما الجهة الثانية، فإنّها تتمثل فيما أوجده الإسلام من مواصفات، وبما وضعه من اعتبارات تجاه هذه الأسس، فجاء هذا المجتمع متميزاً بتميُّز أُسسه. ويكون في حُكم المُسلَّمات تقسيم الحاجة إلى ما هو مادي، وما هو معنوي ــ روحي أو ثقافي، ثمّ إلى ما هو فردي وما هو جماعي.

وقد يتداخل الوصفان تداخلاً ينتج أربعة أصناف من الحاجة هي: أ. صنف مادي فردي يتلخّص في مطالب فرديّة لسلع ماديَّة.

ب. صنف روحي أو ثقافي فردي يتلخّص في مطالب فرديَّة لسلع معنويَّة.

ج . صنف مادي اجتماعي، كرأس المال الاجتماعي.

د . صنف روحي أو ثقافي اجتماعي، كالعقائد والثقافة ووسائلهما.

وهذا التصنيف تكاد تتفق عليه جميع الفلسفات الموضوعيَّة عند الحديث عن الحاجة وأنواعها، إلاّ أنّ هناك مَن يُغلّب نمطاً على آخر حسب التوجّه الغالب على الفلسفة التي تسيطر على النظام الاقتصادي السائد. فالنُظم الرأسماليّة تعتني كثيراً بالحاجات الفرديّة، والنظم الجماعيّة تعتني بالحاجات العامّة، ويكاد يكون الاعتناء بالحاجات الماديّة أمراً متّفقاً عليه بين تلك النُظم.

إذنً هنالك حاجة ماسَّة لتقنية الاتصالات الحديثة لإشباع بعض من حاجات الإنّسان حتى لا يحدث فراغ فكري مطلق وعندما يكون في وسطٍ (١) ما، فإن هذا الوسط يكون نهباً للتيارات الوافدة عليه من كل حدب

(١) المقصود بهذا الوسط الطلاب.

وصوب لملء هذا الفراغ، وقد يكون هذا التيار عقدياً، أو ثقافياً، أو غير ذلك، وقد يحدث نتيجة لغياب المذهبية الإسلامية الواضحة وسيطرة الجمود على الفكر.

إنّ من أكبر المشكلات التي بُليت بها الأُمَّة في شبابها في العصر الحالي داء الجهل وضعف العقل والعقيدة وفراغ الفكر، وهذه الآفات سوس في عقول الشباب وسرطان في نهضة الأُمَّة وإعاقة لتقدمها نحو دورها الرائد والحضاري.

تُعدُّ حالة الفراغ الفكري الذي يعيشه قطاع كبير من الشباب اليوم ظاهرة خطيرة جداً؛ وذلك لأن الفراغ الفكري وحده قاتل فكيف إذا أضفنا إليه عوامل الاستخدام السيئ وغير المرشَّد لتقنية الاتصالات الحديثة، التي جاءت فجأة ودخلت بقوة في حياتنا من غير سابق إنذار، وهنا تكمن الخطورة، فإن لم تكن البُنى التحتية العلمية والمنهجيَّة الإسلامية عند الشباب قوية تماماً مستمدة أصلها من القرآن الكريم والسنة النبوية؛ فإن عوامل الهدم التي تحملها التقنية، وعوامل التفكك التي تصاحبها تكون معول هدم خطير في أوساط الشباب.

وبما أنّه لا يمكن المنع المطلق لتقنية الاتصالات الحديثة لما فيها من منافع شتى، ولطبيعة انتقالها، فهي تخترق كل الأجواء ولا تعرف حدود الزمان أو المكان، لذلك يكون التحصين الذاتي للشباب والتربية الأُسرية السليمة والرقابة المجتمعية هي صمام الأمام ضد الانحرافات السلوكية والأخلاقية التي تكون نتاج الاستعمال السيئ لهذه التقنيات الحديثة.

منهج البحث:

يتبع الباحث فى هذه الدراسة المنهج الوصفى التحليلى مستخدماً التعليل والموازنة والترجيح، بغرض الوصول لبيان الحلول والمعالجات من خلال دراسته لمظاهر الفراغ الفكري.

أهداف البحث:

تسعى هذه الدراسة لإبراز الأهداف التالية:ـــ

١. بيان علاقة التقنية الحديثه بالفراغ الفكري.
٢. إثبات الفراغ الفكري وتوضيح مدى تأثيره فى الشباب.

أسئلة البحث:

أثارت هذه الدراسة عدة أسئلة لتأتي مباحثها إجابة عن تلك الأسئلة، والأسئلة هي:ـــ

١. ما هو الفراغ الفكري؟
٢. ما أسبابه؟
٣. ما مظاهره؟
٤. إلى أي مدي أثرت ثورة الاتصالات في هذا الفراغ الفكري؟
٥. هل من حلول ومعالجات؟

تعريف الفراغ الفكري:

الفراغ الفكري كلمة تتكون من جزئيين هما الفراغ والفكر.

فـراغ: ورد لفظ الفراغ في غير ما آية مثل قوله تعالى:﴿ سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴾ (٢) كما ورد أيضا في قصة موسي﴿ وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ ﴾(٣). ويدور معني الفراغ في اللغة حول الخَلاء والخَواء؛ قال ابن منظور: الفراغ الخلاء فَرَغَ يفْرُغُ ويفَرغُ فراغاً وفروغاً، وفرغ الرجل مات مثل قضى لأن جسمه خلا من روح (٤).

(٢) سورة الرحمن، الآية (١٧).

وقال ابن فارس: الفاء والراء والغين أصل صحيح يدل عن خُلوّ وسعة ذَرْعٍ. من ذلك الفراغ خلاف الشغل؛ يقال فرغ فراغاً وفُروغاً وفرغ أيضاً[٥] إذا انتهى مما يشغله.

وقال المرتضي الزبيدي: فرغ منه، أي من الشغل كمنع وسمع، ومنه قوله تعالى:﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [٦] أي خالياً من الصبر[٧].

يلاحظ أنّه لم يرد في القرآن ولا في السنة مدح للفراغ؛ بل جاءت مذمة في عدم استخدامه فيما ينفع كما جاء في حديث عن بن عباس قال: قال النبي (نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ من الناس الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ) [٨].

فكر: ورد لفظ الفكر في القرآن الكريم كثيراً كما في قوله تعالى:﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴾ [٩] كما جاء الأمر بـــالتفكر في آية أخري﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ ﴾[١٠] كما جاءت آيات أخرى بالمدح والثناء لمن يتفكر﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[١١].

ومعني الفكر في اللغة هو إدارة الذهن في شيء، قال ابن منظور: الفَكر إعمال الخاطر فـــي الشـــيء. قـــال سيبويه. ولا يجمع الفكر ولا العلم ولا النظر، وقد حكى ابن دريد في جمعه أفكاراً. والفكرة كالفكر؛ وقد فكَّر في الشيء وأفْكر فيه وتفكّر بمعنى[١٢]. وقال ابن فارس الفاء والكاف والراء تردُّد القلب في الشـــيء، يقـــال تفكّر إذا ردد قلبه معتبراً، ورجل فكِّير كثير الفكر[١٣]. وقال الزبيدي: الفكر بالكسر وتُفـــتح أيضـــاً: إعمـــال النظر، وهكذا في النسخ وفي المحكم إعمال الخاطر في الشيء[١٤].

بناءً على ما تقدم ذكره من تعريفين منفصلين لكل من الفراغ والفكر، يمكن في اللغة تركيب كلمة من لفظين يدلان على معني واحد كفراغ فكري: وهو خلو العقل والفكر مما ينفع ويفيد، وليس شرطاً أن يكون الفـــارغ فكرياً ممتلئاً بما لا يفيد ولكنّه خال مما يفيد، مما يجعل صاحبه مؤهلاً للتأثر بأي فكر وأي منهج بغض النظر عن محتواه العلمي ودرجة صحته وموافقته للشريعة؛ لأن امتلاء العقل والفكر بالعلم والمعرفة يكون رصيداً قوياً ضد الانحراف ومانعاً صلباً من الضلال.

بالجملة يمكن القول بأن الظروف التي يعيشها كثير من الشباب مثل عدم وجود مشاغل لأسباب الفشـــل فـــي الدراسة أو عدم إتمامها بسبب الظروف الاقتصادية أو عدم وجود فرص عمل أمام الشباب؛ تســـببت هـــذه العوامل في إحداث فراغ كبير في حياة الشباب، إن لم يحسن استخدامه وملأه بالبرامج النافعـــة والمشـــاريع المفيدة وهذا في الغالب ما لا يحدث فإن هذا الفراغ بدوره يقود لفراغ فكري خطير جداً له أثره فـــي حيـــاة الشباب وانعكاساته على نمط تربيتهم.

أسباب الفراغ الفكري:

يواجه الشباب اليوم فراغاً فكرياً كبيراً تسببت فيه وأوجدته عدة عوامل تفترق أو تجتمع في الحالة الواحـــدة، وتتنوع أسبابه ما بين عوامل خاصة وعامة ويمكن تقسيم هذه الأسباب إلى الآتي:–

أولاً: أسباب عامة.

---

(٣) سورة القصص، الآية (١٠).
(٤) ابن منظور، لسان العرب. مادة فرغ ١٨ / ٥٢٨ دار الكتب العلمية بيروت.
(٥) ابي الحسين احمد بن فارس بن زكريا-٢٠٠٤م- معجم المقاييس في اللغة، باب الفاء والراء ويثلثها - بتحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون، دار الفكر-بيروت.
(٦) سورة القصص الآية (٥) .
(٧) محمد مرتضى الحسيني الزبيدي-١٤٢٦هـ - تاج العروس من جواهر القاموس، فصل الهاء مع الغين- تحقيق: مجموعة من المحققين- دار الهداية.
(٨) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق حديث رقم ٦٠٤٩ ج/ ٢ ص (٦٤).
(٩) سورة المدثر، الاية (١٨)
(١٠) سورة سبأ، الآية (٤٦).
(١١) سورة الرعد، الآية (٣)
(١٢) ابن منظور، لسان العرب، مادة فكر.
(١٣) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة لابن فارس باب الفاء والكاف.
(١٤) الذبيدى، تاج العروس.

ثانياً: أسباب نفسية أو ذاتية.

ثالثاً: أسباب أُسرية.

رابعاً: أسباب اجتماعية.

الأسباب العامة:

ويمكن الإشارة إلى الأسباب العامة بأمرين:

أولهما: انتشار الجهل وانصراف الناس عن العلم، وفي هذه الحالة يسود المجتمع خليط من الأفكار الفاسدة، والخرافات والتصورات وعادات الجاهلية، ويصبح المجتمع مهيئاً لكل فكر ضال، كما أنّه في بعض الأحيان يكون قابلاً لدعوات الإصلاح إذا لم تكن فيه بدع مستحكمة، ومفاهيم منحرفة مقدسة.

قال الدكتور عبد الحليم عويس: "ولئن كانت عوامل التجزؤ عديدة ورهيبة، فإن هذه العوامل لا تتسلل إلى الأُمَّة إلا حيث تعاني من فراغ فكري وفقر إلى مجموعة القيم التي تغنيها بدراية سليمة مطمئنة عن حقيقة كل من الكون والإنسان والحياة، إذ إن من شأن أية جماعة تعاني مثل هذا الفراغ أن تغدو هدفاً لمطامع أُولي الدعوات الهدامة، التي تصطنع المبادئ والقيم لبلوغ أمانيها وأغراضها"(١٥).

ثانيهما: الفوضى الفكرية، حيث تنتشر المعارف وتقوى حركة التعليم، مع اختلاف مشارب الأفراد الفكرية، فيجهر المبطلون بالضلال ويتفننون في عرضه على الناس، وعندها يتوزع أبناء المجتمع الواحد إلى طوائف كل طائفة تسير خلف فكرة ومبدأ، ويزخرف كل فريق مبدأه، إما بتقريبه إلى الإسلام بالاستدلال الفاسد، أو بتقديمه على أنه الجديد المفيد المتجاوب مع مستجدات العصر، مع دعوى أنه لا يتعارض مع أصول الإسلام، أو لإنعدام معايير الصالح من الطالح لدى الشباب.

الأسباب النفسية:

يمكن تفصيل القول في الأسباب النفسية بأنَّها:

١. الأسباب النفسية أو الذاتية وهي أسباب توجد في نفوس الشباب أصلاً ويضعونها بين أيديهم بلا تدخل من أي مؤثر خارجي نسبة لمرحلة النمو العُمري وتغيراته في البناء النفسي للشباب، وهي بدورها تتسبب في فراغهم الفكري مثل عدم وجود ثوابت فكرية عند كثير من الشباب ولا فهم واضح للحياة وطبيعتها ومشاكلها وتفاعلاتها المختلفة، مما يجعلهم غير قادرين على تحديد احتياجاتهم الفكرية ومن ثم السعي لتلبيتها.

٢. من الأسباب أيضا عدم وجود رؤية واضحة عند الشباب للمستقبل ولا توجد أهداف لتحقيقها، مما يجعله يدخل في دوامة حيرة فكرية وتدور في رأسه مسائل وإشكالات عديدة مثل ماذا أقرأ ومن أصاحب ومن أتابع، يضاف لهذا من المشكلات التخصص الأكاديمي الضيق الذي يجعل الشباب لا ينظر إلا تحت قدميه، غاضاً الطرف عن استشراف المستقبل والتطلع نحو بناء الذات وتطويرها، فكثير من الشباب حد علمهم ومنتهاه قاعة الدراسة والمراجع الأكاديمية المتخصصة، مما يتسبب في ضعف الأفق العلمي وسطحية المنهج الفكري.

الأسباب الأسرية:

الأُسرة هي مجموعة من العوائل، والعائلة هي مصنع الأولاد. تتسبب كثير من الأُسر المعاصرة في صناعة فراغ فكري كبير لدي أولادها من البنين والبنات، خاصة، إن لم تحسن التربية والرعاية لهم، وحفظهم وتثبيتهم على أسس علمية وإسلامية وصحية؛ في الوقت الذي كثرت فيه الاختلافات الفكرية والاضطرابات المنهجية. فضعف التربية الأُسرية وعدم قيام الأُسرة بدورها في تحصين أولادها علمياً وسد نهمهم الفكري،

(١٥) ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر، ص١٨٨.

يحدث فراغاً كبيراً عندهم مما يجعلهم يسعون فردياً لسد هذا النقص الفكري والعوز المعرفي وهنـا تكمـن خطورة عدم القدرة على تميز غث الأفكار والمناهج من سمينها.

كما يتسبب انتشار الجهل والأُميَّة داخل الأُسرة في فراغ فكري عند الأولاد وفاقد الشـيء لا يعطيـه، هـذا إضافة إلى ما تحدثه الظروف المعيشية عالية الرفاهية، أو الفقر المدقع وما يتولد عنـه مـن مشـاكل: إذن تضافرت مع ذلك الجهل وتلك الأُميَّة في إحداث فراغ فكري أيضاً.

الأسباب الاجتماعية:

المعني بالأسباب الاجتماعية هو دور المؤسسات العلمية والأكاديمية التي تقوم على الرعاية والتوجيـه فـي المجتمع، فعدم قيام هذه المؤسسات بدورها تجاه الشباب يخلق عندهم فراغاً فكرياً يكون السعي لسده فرديـاً، وذلك عندما لا تحتوى مناهج هذه المؤسسات على مناهج تلبى احتياجات الشباب حسب أعمارهم وجنسـهم. كما يتسبب ضعف المنهج كثيراً في تخريج (أنصاف متعلمين) مما يجعل تأثرهم سهلاً بأي فكر وأي منهج.

مظاهر الفراغ الفكري :

هناك مظاهر ودلالات كثيرة تدل على الفراغ الفكري الذي يعانيه قطاع لا يستهان به من شباب الأُمَّـة، قـد تكون هذه المظاهر سلوكية تظهر في سلوكهم أو فكرية تتضح في فكرهم، أو حتى عملية تظهر في ممارسة الحياة العملية.

لنا أن نتساءل ما هي دلائل أن هذا الشاب فارغ فكرياً؟ وكيف يمكن الحكم على منهجٍ ما بأنّه فارغ فكريـاً؟ في الواقع هنالك عدة مشيرات، فالشاب الفارغ فكرياً يتَّسم بالسطحية في المناقشة وعرض الأفكار كما يظهر فراغ الفكر في عدم الموضوعية في تناول المواضيع الجادة ذات الشأن؛ كما أنّه تغيب عنده الرؤية العلميـة والمنهجية في الحياة، أيضاً من سمات أصحاب الفراغ الفكري أنّهم يقرؤون ويطلعون ويتصفحون كل ما يقع في أيديهم من كتب ومؤلفات مختلفة الرؤى والأفكار دون القدرة على تمييز النافع من الضار والغـث مـن السمين.

من المظاهر الخطيرة جداً كذلك كثرة الانتقال من مذهب فكري إلى آخر دون إعمال عقل أو تدوير فكـر أو تمحيص رأي بسبب عدم تحديد احتياجات الشاب المقنعة. من مظاهره أيضـاً الشـعور بالملـل والاكتئـاب المستمر.

كذلك من المظاهر السالبة أيضاً الإسهاب في عرض قضية ما وذلك بالتركيز على الجزئيـات الضـيقة دون النظر إلى كليات القضايا والأمور.

ثورة الاتصالات الحديثة ما بين المنافع والمضار:

ظهرت الثورة التقنية الحالية وثورة الاتصالات فجأة ودخلت بقوة إلى عالمنا الإسلامي مما تسبب في إشكالات التعامل معها وتوظيفها على النحو الأمثل لا سيما وسط شريحة الشباب باعتبارهم أكبـر مسـتخدم للتقنية .

مما لا يختلف فيه اثنان أن التقنية وسيلة تنتج وتعطي قدر طاقة مستخدميها كما تتلون بـأخلاقهم وسـلوكهم. ومن ثم فقد تبني أُمَّة وتهدم أخرى، وتستخدمها أُمَّة فتبلغ بها أعلى مراقي الحضارة والتقدم، بينما تسـتخدمها أُمَّة أخرى في اللهو والترفيه، فتنحط بها إلى مهاوي الردى والدمار.

وليس بخافٍ على أحد الفوائد الجمة لتقنية الاتصالات التي ساعدت كثيراً في قطاع الدعوة الإسـلامية، مـن خلال سهولة التواصل ونقل الدعوة عبر وسائطها المختلفة، كما لا يخفى إسهامها بدور كبير ومقدر في حفظ

ونشر التراث الإسلامي المتمثل في القرآن الكريم والسنة المطهرة، وعلومها وقد أحدثت هذه الوسائط نقلة كمية ونوعية كبيرة جداً لما لها من خصائص الانتشار السريع وتخطّيها حدود المكان.

بالرغم من كل ما ذكر من فوائد لا تحصى ولا تخفى على ذي بصيرة لتقنيات الاتصالات الحديثة، فإن لها بالمقابل أضراراً أخرى لا تكاد تقل عدداً عن فوائدها إذا لم يتم ترشيد استخدامها فيما ينفع، وستنقلب حينئذٍ سلاحاً ضارباً في التدمير والفساد.

وبالجملة تدور أخطار ثورة الاتصالات الحديثة حول خطرين: خطر مباشر ناتج عن كثرة الاستخدام والإفراط فيها وهذا أمر له مؤدّاه في تضييع وقت الصلاة والتهاون في أدائها مثلاً، وقد ذم القرآن الإسراف في الأكل والشرب وهما طاقة الإنسان وقواه المحركة، فكيف بالإسراف في ما هو ليس بضرورة أصلاً. وخطر آخر هو الإفراط في الاستخدام، فقد أثبتت الدراسات الحديثة أضرار الاستخدام المفرط لتقنيات الاتصالات وأثره في صحة الإنسان عامة وعلى بعض أعضائه خاصة كالأذن والرأس والعين.

أما الأخطار الأخرى فهي تنتج عن سوء الاستخدام لهذه الوسائل وتأخذ عدة أشكال، هذه الاستخدامات غير المرشدة مثل كثرة مشاهدة القنوات الفضائية بما فيها من إسفاف قتلاً للوقت وطلباً لسعادة منشودة فُقدت في حياة كثير من الشباب كما نلاحظ التفنن في التصفح للمواقع غير الأخلاقية على شبكة الاتصالات الدولية (الانترنت)، كما نجد أيضاً الاستخدام المفرط للهاتف.

وتكمن الخطورة الحقيقة لهذه الاستخدامات في وجود حالة فراغ فكري عند الشباب، لأن العقل الفارغ أسرع بالتأثر من العقل الممتلئ بالعلم والحكمة، لذلك تمثل ظاهرة الفراغ الفكري ظاهرة مرضية لها أخطارها وأضرارها، إذا لم تتم المعالجة لها فإن وسائل الاتصالات الحديثة تملأ هذا الفراغ وتحوله إلى أطوار أخطر. فالفارغ فكرياً سريع التأثر بأي فكر يكون قوياً في عرضه وجذاباً في مظهره ولو كان فكراً ضالاً، والمواقع على الإنترنت تحمل آلاف الآراء والأفكار الضالة، كما قد يتسبب الفراغ الفكري في التزام الشاب بمنهج يناقض سلوكه وأخلاقه ومثله العليا، بل تطلعاته الهادفة النبيلة وهو لا يشعر بذلك حتى يتمكن منه الداء العضال ويصعب عليه الانفكاك عن المنهج الذي تعوده.

كما ويصاب الفارغ فكرياً بعدم وجود مرجعية علمية يمكن رجوعه إليها إذا ما واجهته مسألة علمية أو أزمة فكرية، فهو فارغ الفكر مما يفيد ومن معرفة من يفيد لأنّه لو تمت له مدارسة مع أصحاب العقول الراجحة والأفكار النيرة، لحصل له من العلم ما يملأ فراغه الفكري، ومن ثم يكون التخبط والاضطراب نتاجاً طبيعياً لهذه الحالة، ومن ثم قد يستعين بمن يظنّهم أهل العلم وليسوا بأهله وربما يكونون من أصحاب الأهواء الشخصية أو الضلالات المنهجية، وتزداد مشكلته تعقيداً وتزيد خطورة هذه الظاهرة في الوقت الذي أصبح فيه كل طالب علم مبتدئ، قادراً على إنشاء موقع فيستفتي ويجيب وهو جاهل بدين الله وأحكامه الشرعية فضلاً أن يرقى إلى مستوى حل مشاكل الشباب وفك معضلاتهم العلمية، ومن العجيب أن بعض الشباب يجعل أدلته في مسائل خلافيّة مواقع يزورها على الإنترنت دون التثبت من صحتها.

مما ينبغي التنبيه عليه أيضاً هو أن الفراغ الفكري يسبب مللاً وقلقاً دائمين بسبب توفر الوقت وفراغ العقل، فصاحبه يحتاج لأمر يقضي فيه وقته ويضيعه. وأجهزة التقانة الحديثة فيها قدر كبير من اللهو والمرح المباح وغير المباح، كما تحتوي وسائطها على مغريات كثيرة، ومن ثم في حالة عدم وجود الوازع الديني والتربية والرقابة من الأُسرة، فإن ذلك يؤدى إلى اختلالات سلوكية خطيرة.

لعل من أخطر صور الاستخدام الخاطئ زيارة المواقع العلمية ذات المناهج الضحلة والأفكار الضالة، فيأخذها الشاب بلا تحفظ، لأنّه غير محصن ذاتياً لتميز جيدها من رديئها ولا نافعها من ضارها.

الحلول والمعالجات :

تكون الوقاية من الظواهر المجتمعية السالبة في تعطيل الأسباب المنشئة والمغذية لها، ومن خلال تحليلنا لهذه الظاهرة وجدناها تتفرع من أسباب ذاتية، وأخرى أسرية وعوامل اجتماعية، كما سبق البيان ومن ثم تكون الوقاية منها والمعالجات لها من خلال المحاور ذاتها التي تلج منها هذه الظاهرة السالبة.

ففي الجانب الأُسري تكون المعالجة على يد الوالدين بحفز الأولاد ودفعهم للهمم العالية والتعلق بأهداف سامية يسعون لتحقيقها والوصول إليها وربطهم بالمستقبل كما ينبغي تحصين الشباب وتثبيتهم على قواعد ومنطلقات فكرية سليمة، وهذا ما يسمي بقاعدة التحصين الذاتي التي أشار إليهما حديث ابن عباس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم (يا غلام إني أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فأسال الله وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأُمَّة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف)[١٦].

هذا دليل واضح على اهتمام الرسول صلى الله عليه وسلم بالشباب وكيفية المحافظة على عقائدهم وأفكارهم وذلك بالتوجيه المباشر لهم، ليس تركهم لعواصف الفتن والأهواء أن تعصف بهم.

مثلاً جانب آخر من وسائل العلاج والوقاية هو المحور الأُسري ودوره المتعاظم في الوقاية من الظواهر السالبة، فكما هو معلوم فإن البيت هو عمدة المجتمع وركيزته الرئيسة التي يرتكز عليها، وههنا يكون التلازم في علاج الظواهر السالبة في ابتداء معالجة التفلتات الأُسرية والانحرافات داخلها مما يشكل في مجموعه أمن وسلامة المجتمع، وبناء مجتمع سليم ومعافى.

كما نلاحظ التلازم بين التربية الأُسريَّة الصحيحة والرقابة المتواصلة على أفراد الأُسرة وبين القدرة على التصدي للظواهر السالبة وقدرة الشباب على صد موجات الانحلال ومواجهة مد التفكك والفساد.

ولعل أحد جوانب الرعاية الأُسريَّة هو الاهتمام بالأولاد والحرص على سليم عقائدهم وصحيح فكرهم، ذلك بالسؤال المباشر لهم والتأكد من ذلك كما في قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ ﴾[١٧] وهذا يدل على مؤشر مهم في التربية وهو حرص الأب على عقيدة أولاده. كما استجاب الله دعاء إبراهيم عليه السلام فلم يعبد أحد من بنيه الأصنام.

ودليل آخر في قصة يعقوب عليه الصلاة والسلام، حيث لم يشغله الموت عن سؤال بنيه عن عقيدتهم ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [١٨].

هنا دلالة واضحة على اهتمام الأنبياء بعقائد أبنائهم والاطمئنان عليها ليست في حال الحياة بل بعد موتهم، أرادوا التأكد من بقائهم على ذات النهج من العبادة والطاعة بلا انحراف والتفاف الطريق.

(١٦) أخرجه الترمذي وقال عنه حسن صحيح ٢٦١٦.
(١٧) سورة إبراهيم- الآية (٣٥).
(١٨) سورة البقرة- الآية (١٣٣).

ويأتي أخيراً دور المحور المجتمعي وهو دور مؤسسات الدولة التعليميَّة والإعلاميَّة والمؤسسات الأكاديميَّة الأخرى في تصحيح المنهج الفكري عند الشباب والمحافظة عليه وإبعادهم عن كل آفات الفكر؛ بابتكار أنشطة اجتماعية موجه لبناء الفكر والوجدان مثل (نوادى ثقافية رياضية، مكتبات اللكترونية ... إلخ).

الخاتمة:

من خلال دراسة الفراغ الفكري عند الشباب تبين أنّه ظاهرة منتشرة جداً بين الشباب وبصورة مخيفة، وتتمثل هذه الظاهرة في عزوف الشباب عن مصادر المعرفة الإسلامية والهروب من سوق الفكر والعلم التي أصبحت كاسدة لا رواد لها، إلا قليلاً.

قامت الدراسة بالتركيز على أسباب الظاهرة وظروف تفشيها وانتشارها التي هي مركبة من أخطاء الأُسرة وتقاعس المجتمع، ومن ثم تتداخل هذه العوامل لتصنع شباباً فارغاً فكرياً غير مؤهل لقيادة المجتمع ولا ليكون عضواً فعالاً فيه، إذ انحصر تفكيره في المأكل والملبس والملهي، وزاد في الأمر حدة غياب التربية الأُسرية عندما تناست الأُسرة دورها نحو الأولاد رعايةً وتوجيهاً واختزلت علاقة الشباب بالأُسرة في الانتماء إليها والاعتماد عليها في حاجاته المادية فقط.

كما ساهمت مؤسسة المجتمع في هذه الظاهرة؛ إذ قلت المنتديات العلمية والفكرية النافعة، واكتفت المؤسسات الأكاديمية بتخريج (أنصاف المتعلمين) وأصحاب النظر الضيق والأفق المحدودة، لا يرون المستقبل ولا يستشرفونه، مكتفين بالنظر تحت أقدمهم.

وقد زاد تعقيد هذه الظاهرة في ظل الانفتاحية العالمية، ظهور ثورة الاتصالات ودخول وسائل الإعلام الحديثة كالتلفاز والإنترنت وغيرها كمربٍ له أثره ودوره في صناعة الأفكار وتوجيه الاهتمامات عند الشباب فيتلقون كل ما يسمعونه ويشاهدونه، ويحاولون عبثاً تقليده، وهم خلو تماماً من القدرة على التصدي لموجات الفتنة وآفات الفكر.

لقد تنامي المناداة الشعور بأهمية الدور المجتمعي أهميته في التربية السلوكية للأفراد في العصرالحديث، بعد تراجع كبير لدور الأُسرة، وانشغال كثير من الآباء عن أولادهم مما أحدث فجوة تربوية كبيرة، كما انشغلت المؤسسات الأكاديمية وانحصرت في البرامج الدراسية المتخصصة في وقت تنامت فيه وازدهرت وسائل الاتصال مع المجتمعات الخارجية بسهولة ويسر ودخلت هذه الوسائط المرئية والمسموعة كمربٍ له أثره في الشباب وتوجيه أفكارهم وصياغتها وأثره الظاهر في أخلاقهم. عليه، لابد من مواجهة ذلك المد التقني الجارف بدور مجتمعي قوي وفاعل في توجيه الشباب والرقابة عليهم. ويقول الباحث التربوي محمد نبيل موضحاً أهمية دور المجتمع: (علي قدر تعدد الأوساط التربوية وكثرتها وترابطها يظهر تميز مؤسسة المجتمع في كبر مساحتها وسعة دائرتها وأهمية موقعها في حياة كل فرد ومستقبله).[١٩]

كما يتضح ذلك أيضا عندما يغادر الفرد بيئته أو مدرسته أو مسجده ويلتحق بالمجتمع وينخرط فيه ويتفاعل مع جميع أطيافه متدثراً بعوامل مناعية وسلوكية اكتسبها من خلال أسرته وأصدقائه ومسجده ومدرسته، ومن خلال تلك الاكتسابات السلوكية واستشعاره بدوره لتأكيد ذاته وأهميه، يشعر بأنّه من خلال تكوينه التربوي عضو في مجتمعه فيحافظ ذلك العضو الجديد ويطور مكاسبه الأخلاقية والتربوية والمعرفية[٢٠] فلا يقع صيداً سهلاً لأصحاب المآرب الشخصية والعداوة للإسلام، كذلك كان لابد من وقفة للوقاية من هذه الظاهرة ومثيلاتها ولابد مسبيل ناجح للعلاج مما أصاب الشباب من تراوح بين الفراغ الفكري والاستخدام السيئ

---

(١٩) نبيل محمد توفيق- ١٤٠٢هـ -المنهج الإسلامي دراسة المجتمع، دار الشروق- جدة - ص٢٥٠.
(٢٠) صبحي بني يحي الحارثي -١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م- دور القضاء السعودي للإصلاح التربوي، المملكة العربية السعودية، ص٣٠٩ إلي ٣١٠.

للتقنيات وأول خطوات الوقاية والعلاج هي الأُسرة، إذ إنّها أول لبنة في المجتمع، فلا بد أن تقوم بدورها المنوط بها نحو أبنائها والمنسوبين إليها، وتتم هذه المعالجة بأساليب محدودة كالرعاية النفسية والمصاحبة من قبل الوالدين ومراقبة ومحاسبة على الأخطاء المرتكبة داخل الأُسرة وخارجها.

كما ينبغي أن تقوم مؤسسات المجتمع بدورها الموكل إليها في سد ذرائع الفساد والفتنة الموجهة للشباب الذين هم رجال المستقبل وصُنَّاعه، حتى لا يصاب غداً المجتمع بالشلل الحركي فتتعطل قوته، وتقل فاعليتها، ويصبح المجتمع عالة على ما حوله من المجتمعات مكتفياً بالاستهلاك منها لبضائعه القيمية والفكرية، كما ينبغي أن تراجع مؤسسات التعليم مناهجها لتخريج شباب ذوى رسالة ينفعون بعلمهم وينتفعون به.

وعلي الشباب ألا يضيعوا جهدهم وأوقاتهم فيما يعود عليهم بالوبال والحسرة، وأن يكونوا بعيدي النظر غير منجرفين وراء الشهوات والفتن التي تحد من تقدمهم ورقيهم الإنساني.

المراجع:

- القرآن الكريم.

١. ابن منظور- محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري لسان العرب- دار صادر- بيروت الطبعة الاخيرة.

٢. ابي الحسين احمد بن فارس بن زكريا-٢٠٠٤م- معجم المقاييس في اللغة- بتحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون، دار الفكر-بيروت.

٣. محمد مرتضى الحسيني الزبيدي-١٤٢٦هـ - تاج العروس من جواهر القاموس- تحقيق: مجموعة من المحققين- دار الهداية.

٤. محمد بن اسماعيل ابو عبد الله البخاري -١٩٩٧م- صحيح البخاري، تحقيق:د. مصطفي ديب البغا - الطبعة الثالثة-اليمامة-بيروت.

٥. الترمذي - محمد بن عيسى ابو عيسى-٢٠٠٧م -الجامع الصحيح لسنن الترمذي- تحقيق:احمد محمد شاكر وآخرون- دار إحياء التراث العربي-بيروت.

٦. ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر. عقدت هذه الندوة بدولة البحرين خلال الفترة من ٣-٦ جمادى الثانية ١٤٠٥هـ/الموافق ٢٢-٢٥ فبراير١٩٨٥م.

٧. نبيل، محمد توفيق-١٤٠٢هـ- المنهج الإسلامي دراسة المجتمع، دار الشروق- جدة .

٨. الحارثي - صبحي بني يحي-١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م- دور القضاء السعودي للإصلاح التربوي- المملكة العربية السعودية.